الشَّاهد القرآني في كتاب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للإمام فخر الدين الرَّازيّ ت٦٠٦هـ (فن التشبيه أنموذجًا) دراسة بلاغية تحليلية.

الباحثة /نورة بنت محمد بن حميدان السهلي
طالبة دراسات عليا/ قسم اللغة العربية
تخصص/ بلاغة ونقد
كلية اللغات والترجمة، جامعة جدة، جدة، المملكة العربية السعودية

المستخلص

هذا بحث بعنوان: الشَّاهد القرآني في كتاب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للإمام فخر الدين الرَّازيّ ت٦٠٦هـ(فن التشبيه أنموذجًا) دراسة بلاغية تحليلية، وقدْ جاءت الإشارة فيه إلى دراسة نماذج من الشَّواهد القرآنية الموجودة في فن التشبيه عند الرَّازيّ، من خلال مؤلفه الموسوم بنهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، وتحليلها تحليلًا بلاغيًّا، مع بيان دوره في هذا الجانب.

وبما أنَّ الرَّازيّ عالم جليل من علماء البلاغة العربية، وصاحب علم غزير؛ إذْ ظهرت بلاغته الفذة من خلال مؤلَّفه، فقدْ قامت الدراسة بتقديم نبذة موجزة عنه، وعن مؤلفه، ولما كان الشَّاهد القرآني هو مناط الاهتمام، وموضع العناية لديه؛ لما له من منزلة رفيعة عند العلماء قديمًا وحديثًا؛ ولكونه مدار العلم، وأدلة الكلام، وبراهينه، قدمت الدراسة لمحة بسيطة عن المفهوم العام للشَّاهد، وتمت دراسته في مبحث خاص من خلال نماذج مختارة من فنون التشبيه، ومن ثَمَّ احتوى المبحث على مطلب مختص بالمشبَّه والمشبَّه به، وقدْ أدرجت تحته أربعة أقسام تبيِّن المراد منه.

وطبيعة البحث حتمت عليَّ أنْ أتخذ المنهج الوصفي منهجًا له، **وأبرز نتائج البحث هي:**

أنَّ الرَّازيّ صاحب فكر قويم، ونظرة مستقلة، فهو لا يرفض الشيء إتباعًا وقسرًا وإجبارًا، وإنَّما وفق ما يراه مستدلًا عليه بأدلة تبيِّن سبب الرفض، وإذا رأى فيه فائدة تُذكر، من جانب آخر فهو لا يُصِرُّ على رفضه، وإنَّما يقبله مستشهِدا عليه بما يوضح المراد، كما أنَّ كتابه ليس مجرد تلخيص، وإنَّما يحتوي على مواضع عدة تبيِّن استقلالية الرأي والفكر،

من خلال مناقشة عدد من المسائل البلاغية التي لمْ يوردْها الجرجاني، والاستشهاد عليها بشواهد قرآنية؛ لإثبات القاعدة وتوضيحها، أكثر من تحليلها وتفصيلها.

Abstract:

This research entitled the Quranic evidence in the book of Nihiat Al-Ijaz fi Diriat Al-'Ijaz by Imam Fakhr Ed-Din Ar-Razi (died 606 AH) (simile as a model) an analytical rhetorical study.

It refers to the study and the rhetorical analysis of models of the Quranic evidence regarding the simile for Ar-Razi with a reference to his role in this aspect.

As Ar-Razi was a renowned scholar of Arabic rhetoric and had a wide knowledge of it, and his unique eloquence came into view through his book, the study has presented a short introduction about him and his book. Also, because the Quranic evidence was the place of interest and focus of concern to him due to its lofty position in view of the scholars now and then for being the core of knowledge and the proofs and evidence of words, this study has presented a synopsis about the general concept of the evidence which is studied in a private research through selected examples of simile Thus, the research includes a requirement related to tenor and vehicle and it is subdivided into four types to refer to its meaning.

Because of the nature of the research I adopt the descriptive approach.It came up with the most important results: Ar-Razi had an upright thinking and independent viewpoint because he did not reject anything out of force, imitation or obligation but according to his viewpoint providing evidence clarifying the meaning .Moreover, his books is not just a summary, however, it contains many topics referring to the independence of thinking and viewpoint through the discussion of many rhetorical topics not mentioned by the Al-Jorjany and providing Quranic evidence for it to prove and clarify the rule more than analyze and detail it.

المقدمة:

الحمد لله الذي أعزَّ العرب بالإسلام، وشرَّف لغتهم بالقرآن، وأيَّد رسوله بناصع الحجة، ورفيع البيان، والصلاة والسلام على مَن فتح بجوامع كلِمِه قلوبًا غُلفًا، وأسمع بسحر بيانه آذانًا صُمًّا، وهدى بحكمته مَن كان في ضلالٍ مبين، وعلى آله وصحبه الغرِّ المحجلين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

فقد حُظي البحث في الشَّواهد بعناية فائقة من العلماء قديمًا وحديثًا، وعَدُّوها من الأدلة على إثبات القواعد، وتوضيحها، وجعلوا عليها مدارَ الحكم بالصحة من عدمه، بلْ إنَّ: "قيمة العالِم تتجلى في معرفته بالشَّواهد، واستخراجه لها من الكلام الفصيح، واستحضاره إيَّاها عند الحاجة..."(١).

وتُعدُّ فكرة الشَّاهد فكرة أصيلة في التراث العربي كله، وليس في الموروث البلاغي فحسب، ولعلَّه يمكنُ القول إنَّ الشَّاهد هو أحد مكونات بنية العقل العربي، يقول الجاحظ: "إنَّ مَدَارَ العِلم على الشَّاهِدِ والمَثَل..."(٢).

وقدْ علَّ الإمام عبد القاهر الجرجاني لدور الشَّاهد بقوله: "إثبات الصفة بإثبات دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها آكدُ وأبلغُ في الدَّعْوى"(٣).

وقدْ كانت آيات القرآن الكريم –ومازالت– موضع عناية البلاغيين، ومحطَّ اهتمامهم، بما تحمله من أسرار بلاغية دقيقة، ولطائف بديعية جليلة، تمثل البلاغة في أرقى صورها.

ويُعدُّ الرَّازيّ أحد العلماء الذين عُنوا بتناول الشَّاهد القرآني؛ حيث عُرِف بدقة البحث، وكثرة العلم وغزارته، وحدة الذهن وبراعته، وكثرة النقد والتمحيص بما يعرضه من آراء بلاغية ونقدية مهمة، تتمثل في الفنون البلاغية القَيِّمة التي يشتمل عليها كتابه، ومن هذه الفنون: فن التشبيه، ولما كان التشبيه ذا منزلة عظيمة في درس البلاغة؛ إذْ يُعدُّ أحد أركانها

(١)عبدالجبار النايلة، الشَّواهد والاستشهاد في النحو(بغداد: مطبعة الزهراء، ١٩٧٦م)، ص٢٣.
(٢)البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام محمَّد هارون، ط٧، ج١(القاهرة: مكتبة الخانجي،١٤١٨ه-١٩٩٨م)، ص٢٧١.
(٣)دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمَّد شاكر، ط٣(القاهر: مطبعة المدني، ١٤١٣ه-١٩٩٢م)، ص٧٢.

الأساسية، ومن أهم فصولها، لما له من قدرة كبيرة على تقريب المعاني، وتوضيحها للقارئ بطريقة محسوسة ملموسة، تجعل من الخيال أمرًا ممكنًا مُدركًا بالحواس، فتألفه النفوس، وتأنس به، متأثرةً بمحاسنه، وما ينطوي عليه من لطائف بلاغية أيَّما تأثير، وكان الشَّاهد القرآني من أبرز الشَّواهد التي تناولها الرَّازيّ في عرضه لمسائل هذا المبحث، أحببتُ أنْ أتناوله بالدراسة والتحليل من خلال نماذج مختارة، وتخيرت له عنوانًا: **الشَّاهد القرآني في كتاب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للإمام فخر الدين الرَّازيّ ت٦٠٦هـ (فن التشبيه أنموذجًا) دراسة بلاغية تحليلية.**

مشكلة البحث: تكمن مشكلة الدراسة في الكشف عن منزلة فن التشبيه عند الرَّازيّ، وعن منهجه في تحليل شواهده القرآنية، من خلال نماذج مختارة.

أهداف البحث:

١- الكشف عن جانب مهم من الجوانب البلاغية الموجودة في فن التشبيه عند الرَّازيّ، ودراستها من خلال نماذج مختارة، مع بيان طريقته في الاستشهاد.

٢-إبراز مكانة الشَّاهد القرآني من خلال فن التشبيه، وبيان أثره في تطور الدرس البلاغي.

٣- الرغبة في خدمة كتاب الله تعالى، وبيان ما في آياته من أسرار بلاغية، من خلال ما وقف عليه الفكر البلاغي.

منهج البحث:

سأتِّبع في بحثي هذا المنهج الوصفي، مستعرضةً رأي الرَّازيّ في فن التشبيه من خلال نماذج مختارة من الشَّواهد القرآنية، ومحللةً إياها تحليلًا بلاغيًّا، وفق ما يقتضيه المقام، ويتطلبه.

الهيكل العام للبحث: اقتضت طبيعة البحث أنْ يتكون من:

مقدمة، وتمهيد أشرت فيه إلى التعريف بالإمام الرَّازيّ، وبكتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)، كما تحدثت فيه أيضًا عن التعريف بالشَّاهد لغةً واصطلاحًا، وبعد ذلك شرعت في المبحث الخاص بالدراسة، والذي كان يتحدث عن فن التشبيه، وأدرجت تحته مطلبًا

مشتملًا على أربعة أقسام مختصة بالحديث عن المشبَّه والمشبَّه به، وما يتعلَّق بهما من حيث حسية الطرفين وعقليتهما، وذيَّلت الدراسة بخاتمة لخصت فيها أبرز النتائج التي توصلت إليها، إضافةً إلى بعض التوصيات المقترحة، وختمت الدراسة بقائمة بأهم المصادر والمراجع.

التمهيد

قبل البدء في دراسة الشَّاهد القرآني في فن التشبيه، والتعرف على أسراره البلاغية، والكشف عن مكنوناته الدقيقة بما يتضمنه من قِيَم فنية جمالية، وذلك بتسليط الضوء على نماذج مختارة منه، يحسن التمهيد بالحديث عن الرَّازيّ، وعن كتابه في نبذة موجزة، ومنْ ثَمَّ الوقوف على مفهوم الشَّاهد القرآني في المجال اللغوي والاصطلاحي؛ لأهميته الكبرى في إثبات القواعد وتوضيحها.

أولًا: التعريف بالرَّازيّ: هو الإمام فخر الدين الرَّازيّ أبو عبدالله محمَّد بن عمر بن الحسين الرَّازيّ، لقب بفخر الدين، وعرف بابن الخطيب، ولد سنة٥٤٤هـ، وقيل سنة٥٣٤هـ، يُعدُّ من أفضل المتأخرين، وسيد الحكماء، كان شديد الحرص في سائر العلوم الشرعية والحكمية، جيد الفطرة، حاد الذهن، حسن العبارة، كثير البراعة، عارفًا بالأدب وعالمًا به، له العديد من المصنفات العلمية التي تدلُّ على غزارة علمه، وعظيم إفادته ونبله، توفي سنة(٦٠٦هـ)[1].

ثانيًا: التعريف بكتاب (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز): يُعدُّ كتاب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز من الكتب المهمة التي جمعت بين طياتها فنونًا بلاغيةً عدةً، فهو كتاب بلاغي قَيِّم تتضح من خلاله بلاغة الرَّازيّ، وأدبيته الفذة، وذلك من خلال ما ابتكره من تقسيمات وتفريعات وآراء نقدية وتخريجات، نهجت بكتابه نهجًا فريدًا، واتجهت به اتجاهًا جديدًا غير مألوف من قبل، ولمْ يسبق إليه أحد، والغاية التي دفعت بالرَّازيّ إلى الخوض في ضمار البلاغة، وسبر أغوارها شرف هذا العلم، وعلو مكانته، فأعجب بالجرجاني وعِلمه،

(١) ينظر: أحمد ابن أبي أصيبعه، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: د. نزار رضا، دط (بيروت: دار مكتبة الحياة، دت)، ص٤٦٢، أحمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. إحسان عباس، دط، مج ٤ (بيروت: دارصادر،١٣٩٨ه-١٩٧٨م)، ص٢٤٨، ٢٤٩.

وذلك من خلال كتابيه–دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة– ومع إعجابه الشديد به إلَّا أنَّه أخذ عليه إهمال رعاية ترتيب الفصول والأبواب وإطنابه في الكلام كل الإطناب، فألَّف كتابه قاصدًا منه الإجمال والاختصار غير المخل، مبتعدًا به عن إطناب الجرجاني(١).

ثالثًا: التعريف بالشَّاهد:

أ–لغة: الشَّاهد: اسم فاعل من الفعل شَهِدَ، ومصدره الشهادة: بمعنى الخبر القاطع. والمشاهدة: المعاينة. وشَهِدَهُ شُهودًا، أي حَضَرَه، فهو شاهدٌ. وقومٌ شُهُودٌ أي حُضُورٌ(٢). **والشَّاهد:** هو العالِم الذي يُبيِّن ما علمه ويظهره، وشَهِدَ الشَّاهد عند الحاكم، أي بَيَّن ما يَعلمه(٣).

ب–اصطلاحًا: يطلق الشَّاهد على: "الجزئي الذي يُسْتشهَد به في إثبات القاعدة لكون ذلك الجزئي من التنزيل أو كلام العرب الموثوق بعربيتهم، وهو أخص من المثال"(٤).

المبحث الأول: في فن التشبيه

(١) يُنظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق: بكري شيخ أمين، ط (بيروت-لبنان: دار العلم للملايين،١٩٨٥م)، ص٣٩-٤١، ٧٢-٧٥.

(٢)ينظر: إسماعيل الجوهري، الصِّحاح تاج اللغة وصِحاح العربيَّة، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطّار، ط٤، ج٢(بيروت-لبنان، دار العلم للملايين، ١٩٩٠م)، ص٤٩٤، مادة:(ش، ه، د).

(٣)يُنظر: محمَّد ابن منظور، لسان العرب، دط، مج٣ (بيروت: دار صادر)، ص٢٣٩، مادة:(ش، ه،د).

(٤) محمَّد التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، ط، ج١(بيروت-لبنان: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٦م)، ص١٠٠٢.

عرَّف ابن رشيق التشبيه بأنَّه: "صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو من جهات كثيرة، لا من جميع جهاته؛ لأنَّه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه"(١). **كما عرَّفه الخطيب القزويني بأنَّه:** "الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى، والمراد بالتشبيه ههنا: مالمْ يكنْ على وجه الاستعارة التحقيقية ولا الاستعارة بالكناية، ولا التجريد"(٢).

وقد عُني الباحثون بدراسة التشبيه عناية واضحة تتمثل في الدراسات الكثيرة ذات العلوم الغزيرة التي يراها المطَّلِع على كتب الأدب والشعر واللغة والتفسير، وهذا الاهتمام راجع إلى شيوع هذه الخاصية، وجريانها في كثير من فنون الكلام، فضلًا عن كثرتها في القرآن الكريم وحديث رسوله الله ﷺ وكأنَّها جزء أصيل في بلاغة اللغة العربية وآدابها، ومن هنا اجتهدوا في دراسته والكشف عن أسراره ومكنوناته، ومواطن التأثير فيه(٣). **وفي هذا يقول أبو هلال العسكري:** "والتشبيهُ يَزِيدُ المعنى وضوحًا، ويُكْسبُه تأكيدًا؛ ولهذا ما أطبق(٤) جميعُ المتكلمين من العرب والعَجَم عليه، ولمْ يستَغْنِ أحدٌ منهم عنه، وقدْ جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كلِّ جيل ما يستدلُّ به على شرفه وفَضْلِه ومَوْقِعه من البلاغة بكلِّ لسان"(٥).

ولمْ يكنْ الرَّازيّ بمنأى عن إدراك هذه الصورة البلاغية المختزلة في التشبيه، والتي تحوي بين طياتها نكتًا وأسرارًا بلاغيةً قَيِّمةً، لا تُدرَك إلَّا بالتأمل، وطول النظر بين المفردات؛ ليتوصل من خلالها القارئ إلى الدقائق والمكنونات التي تغذي الذهن والعقل، وترهف المشاعر والأحاسيس من خلال المقاربة والمشابهة بين الممكن والمستبعد، وقد تناوله الرَّازيّ

---

(١) العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، تحقيق: محمَّد عبدالحميد، ط٥، ج١(بيروت- لبنان: دار الجيل،١٤٠١هـ-١٩٨١م)، ص٢٨٦.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمَّد عبدالقادر الفاضلي، دط (صيدا-بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٩م-١٤٣٠هـ)، ص٢٠٩.

(٣) يُنظر: محمَّد أبو موسى، التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ط٦ (القاهرة: مكتبة وهبة،٢٠٠٦م)، ص٤٠.

(٤)وبناء على قوله وسياق الكلام، فإنَّ المقصود-والله أعلم وأحكم- ولهذا(أطبق) جميع المتكلمين من العرب العجم عليه، بدون (ما) النافية.

(٥)الصناعتين، تحقيق: علي البجاوي، محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دط (صيدا-بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م)، ص٢٤٣.

في مواضع عدة من كتابه منها: موضع البحث والدراسة وهو: المشبَّه والمشبَّه به وما يتعلَّق بهما من حيث حسية الطرفين وعقليتهما.

المطلب الأول: في المشبَّه والمشبَّه به وما يتعلَّق بهما من حيث حسية الطرفين وعقليتهما:

١ـقال تعالى:﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ٣٩﴾(١).

٢ـ قال تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾(٢).

٣ـ قال تعالى:﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥﴾(٣).

أورد الرَّازيّ هذه الآيات في معرِض حديثه عن المشبَّه والمشبَّه به، وبيان أقسامهما باعتبار طرفي التشبيه، مبينًا أنَّ منهما: ما يكونا محسوسَيْن أو معقولَيْن، ومنهما ما يكون المشبَّه معقولًا والمشبَّه به محسوسًا، ومنهما: ما يكون المشبَّه محسوسًا والمشبَّه به معقولًا(٤)، مستشهدًا على **القسم الأول:** والذي يكون المشبَّه والمشبَّه به محسوسين بقوله تعالى:﴿**وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ** ٣٩﴾ بدون تعليق على الآية، موضحًا من خلالها أنَّهما وإنْ كانا مشتركين في كونهما محسوسين إلَّا أنَّهما لا بد أنْ يكونا مشتركين من وجهٍ، ومختلفَينِ من وجهٍ آخر، ولا يخلو إمَّا أنْ يكون اشتراكهما في الذَّات واختلافهما في الصِّفات، وإمَّا أنْ يكون العكس، فالأول: مثل تشبيه العَذْوِ بالطَّيران؛ لأنَّه ليس الاختلاف بينهما إلَّا بالسُّرعةِ والبُطْءِ، فاشتراكهما يكون في نفس الحركة، والثاني: كتشبيه الشَّعر بالليَّل والوجه بالنَّهار(٥).

ومعنى كلامه ومغزاه أنَّ التشبيه لا يكون ظاهرًا موجودًا بين الشيئين من جميع جهاته، وإنَّما قدْ يكون ظاهرًا فيه من وجه واحد، أو من وجوه متعددة، ومختلف عنه من وجه آخر، وبالنظر في قوله تعالى:﴿ **وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ** ٣٩﴾ يتحقق المقصود، فتشبيه القمر في آخر منازله بالعرجون القديم اليابس من جهة دقته وميلانه،

(١) سورة يس، الآية: ٣٩.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٩.
(٣) سورة الصافات، الآية: ٦٥.
(٤) يُنظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص١٨٨-١٩٠.
(٥) يُنظر: الرَّازيّ، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص١٨٨، ١٨٩.

وليس من جهة منظره، وجماله، وارتفاعه، ولمعانه في السماء، فهذه جهة من جهاته لا جميعها.

أمَّا القسم الثاني: وهو تشبيه المعقول بالمعقول، كتشبيه الموجود العاري عن الفوائد بالمعدوم الخالي من الفوائد، أو تشبيه الشيء الذي تبقى فوائده بعد عَدَمه بالموجود، ولمْ يستشهد عليه الرَّازيّ بآيات من الذكر الحكيم(١).

أمَّا القسم الثالث: وهو تشبيه المعقول بالمحسوس، واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً**﴾، ولمْ يُعلِّق على الآية بأي تعليق، وإنَّما أردفها بمثالٍ نثري؛ ليوضح من خلاله ما أراده في هذا القسم، وهو: تشبيه الحُجَّة بالنُّورِ، الذي هو محسوس بالبصر، وعلَّق عليه بقوله: "**وليس لأحدٍ أنْ يقول: الحُجَّة أيضًا مسموعة. وذلك لأنَّا نقول: الحُجَّة لا تفيد من حيث هي أصواتٌ مسموعة شيئًا، بلْ المفيد هو المعاني العقليَّة الحاصلة في الذِّهن. ووجه المشابهة أنَّ القَلب مع الشُّبهة كالبَصَر مع الظُّلمة، في أنَّ البَصَرَ في الظُّلمة لا يُفيد لصاحبه مُكْنَةَ السَّعِي، ولو سعى فربَّما دُفِعَ إلى الهَلاك وتَرَدَّى في أهوِيَّة. ومنْ الأمثلة: تشبيه العدل بالقسطاس**"(٢). وقد أطلق الجرجاني على هذا القسم –وإنْ لمْ يستشهد عليه بهذه الآية– التشبيه التمثيلي(٣) مبينًا ما يُحدثه هذا النوع من الأثر البليغ في النفوس الإنسانية؛ لأنَّ: "أُنس النفوس موقوفٌ على أنْ تُخرجها من خفيٍّ إلى جليٍّ، وتأتيها بصريح بعد مكنيٍّ، وأنْ تردَّها في الشيء تُعْلِمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتُها به في المعرفة أحكم، نحو: أنْ تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعمَّا يُعلَم بالفكر إلى ما يُعلَم بالاضطرار والطبع؛ لأنَّ العلم المستفادَ من

(١) يُنظر: المصدر السابق، ص١٨٩.
(٢) الرَّازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص١٨٩، ١٩٠.
(٣) **التشبيه التمثيلي هو:** ما كان وجه الشبه فيه منتزع "من عِدَّة أمورٍ يُجْمَعُ بعضها إلى بعض. ثُمَّ يُستخرَج من مجموعها الشَبَهُ، فيكون سبيلهُ سبيلَ الشيئين يُمْزَجُ أحدهما بالآخر، حتى تحدُث صورة غير ما كان لهما في حالة الإفراد". أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمَّد شاكر، ط (جدة: دار المدني، ١٤١٢هـ-١٩٩١م)، ص١٠١.

طرق الحواسِّ أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حدِّ الضرورة، يفضلُ المستفادَ من جهة النَّظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام..."[١].

أمَّا القسم الرابع: وهو تشبيه المحسوس بالمعقول، وذهب الرَّازي إلى عدم جوازه: "**لأنَّ العلوم العقليَّة مستفادة من الحواس ومنتهية إليها. ولذلك قيل: من فَقَدَ حِسًّا فَقدْ فَقَدَ عِلمًا. وإذا كان المحسوس أصلًا للمعقول فتشبيهه به يكون جَعلًا للفرع أصلًا، والأصل فرعًا، وهو غير جائز. ولذلك لو حاول محاولٌ المبالغة في وصف الشَّمس بالظُّهور، والمِسك بالطِّيب، فقال: الشَّمس كالحُجَّة في الظُّهور، والمِسك كخُلُقِ فلانٍ في الطِّيب، كان سخيفًا من القول**"[٢].

ولمْ يتوقف الرَّازيّ عند هذا الحدّ، وإنَّما أفاض القول، واستفاض في هذا القسم؛ لأنَّ الأصل في التشبيه تشبيه المعقول بالمحسوس، ولكنْ الرَّازيّ صاحب نظرة ثاقبة، وعقلٍ واعٍ، فهو مع رفضه لهذا القسم–أعني تشبيه المحسوس بالمعقول– إلَّا أنَّه لا يرفضه برمته، وإنَّما ينظر إليه من ناحية أخرى مبينًا، وجهة نظره فيه، ومنها نظرته إليه –والله أعلم وأحكم– من حيث حقيقته وواقعه؛ لأنَّ ما هو مدرك وتراه العين أبلغ في التأثير النفسي وأعمق في ترك الأثر من المعقول الذي لا وجود له في الحقيقة والواقع؛ لأنَّ الغرض من التشبيه الإيضاح والبيان، والمحسوس أوضح من المعقول في بيان المعنى، وتصويره بصورة مشاهدة، ولكن لو نُظر إلى هذا النوع من التشبيه من ناحية أخرى، وألغيت جميع الحواس، فهو يقبله ولا يمانعه؛ لكونِه على ذلك متخيَّلًا، لا وجود له في الواقع الحقيقي، ولا لجزء من أجزائه مع بعضها مجتمعة في شيء واحد، والخيال يذهب بصاحبه كل مذهب، فيجعل من المستحيل ممكنًا؛ لذا قيل: "**والخيال أقوى على ضبط الكيفيات المحسوسة منه على الأمور الإضافية**"[٣]، وعليه فإنَّ تشبيه الموجود بالمتخيَّل الذي لا وجود له في الأعيان حسنٌ نحو: "**تشبيه الجمر الموقَد ببحرٍ من المسك موجُهُ الذَّهَب. وتحقيق القول فيه: أنَّ المعدوم إنَّما يكون متخيَّلًا إذا فُرِضَ المتخيَّل مجتمعًا من أمور كلٌّ واحد منها موجود في الأعيان.**

(١) المرجع السابق، ص١٢١.
(٢) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص١٩٠.
(٣) الرَّازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص٢٠٠.

ومتى كان كذلك كان التَّشبيه حَسَنًا لطيفًا. وهو كتشبيه النَّرجِسِ بمداهنِ دُرٍّ حَشْوُهُنَّ عَقيق، وتشبيه الشَّقائِق بأعلامِ ياقوتٍ نُشِرْنَ على رماحٍ من زَبَرْجَدٍ، فإنَّ النَّشر في الياقوت ممتنع، ومع ذلك فالتَّشبيه في غاية الحُسْنِ"[١].

فنجد أنَّ جميع هذه التشبيهات خيالية، موجودة في الذهن فقط، ولكنْ لا وجود لها بهذه الطريقة المركبة وبهذا الشكل الغريب مع بعضها مجتمعة في الحقيقة، ولو كانت موجودة لكانت محسوسة جميعها، ومُدرَكة، ولكن أجزاء هذه الأمور موجودة في العيان، فالمسك والموج والذهب أمور موجودة في الحقيقة والواقع، وكذلك تشبيه عيون النرجس بوعاء محشو بالعقيق، لا يكون بهذه الطريقة في الواقع، وإنْ كانت أفراده موجودة كالياقوت والعقيق والدرِّ، والحديث في المثال الثالث لا يختلف عن سابقيه، فالنشر ممتنع في الياقوت بهذه الطريقة، وإنْ كانت أجزاؤه موجودة.

وبعد الانتهاء من بيان هذا النوع القائم على تشبيه الموجود بالمتخيَّل، جاء بما يقرب منه، وما هو مَناط الاهتمام لديه، فهو يتدرج في عرض الأمثلة، وتقريب المعاني للقارئ؛ حتى يصل إلى غايته ومراده بكلِّ سهولةٍ ويسرٍ، ويبيّن رأيه من خلاله، ولماذا قبل هذا النوع من تشبيه المحسوس بالمعقول المتخيَّل الذي لا وجود له، فجاء بقول امرئ القيس:

أَيَقْتُلُنِي وَالَمْشرَفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ[٢]

وعلَّق عليه بأنَّه لو نظر المتأمل لوهلة إلى هذا التشبيه لاتضح فيه من الحُسْنِ واللَّطافة والإتقان ما لا يكون في غيره من التشبيهات المألوفة المعروفة، فهم لمْ يشاهدوا أنياب الأغوال ولا مرت عليهم قط، لكنَّهم لمَّا اعتقدوا فيها غاية الحِدَّة والقُوَّة والخُشونة كما هو شأن السهام المسنونة حَسُنَ التشبيه[٣]، وعليه جاء قوله تعالى:﴿**طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ** ٦٥﴾ ولمْ يُعلِّق عليها لبيان المقصود منها، وربما اكتفاءً بما قيل في الشاهد الشعري[٤].

---

(١) المصدر السابق، ص١٩٣، ١٩٤.

(٢)ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، ط٤(دار المعارف، ١٩٨٤م)، ص٣٣.

(٣) يُنظر: الرَّازيّ، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص١٩٤.

(٤) يُنظر: المصدر السابق، الصفحة نفسها.

وبناء على ما سبق فقد استطاع الرَّازيّ من خلال هذه الأقسام المتعلِّقة بالمشبَّه والمشبَّه به، وما يرتبط بهما ارتباطًا كليًا أنْ يوضح قيمة التشبيه، من خلال عدة طرق، وهي: تشبيه المحسوس بالمحسوس، والمعقول بالمعقول، والمعقول بالمحسوس، والمحسوس بالمعقول، مع ضرب الأمثلة عليها؛ ليتضح من خلالها كيفية اجتماعها بطريقة مبهرة تبيِّن جودته وأهميته من خلال اختيار الألفاظ المناسبة التي تقرِّب المعنى، وتوضحه، وفيما سبق خير مثال.

واستشهد الجاحظ بقوله تعالى:﴿ **طَلۡعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ** ٦٥﴾؛ للردِّ على اعتراضات الطاعنين في كتاب الله ﷻ المُدَّعين أنَّ التشبيه لا بد أنْ يكون فيما هو معروف ومشاهَد حتى تكتمل صورته، والمستنكرين ضرب المثل بشيء لمْ يشاهد[1] بقوله: "ولَيْسَ أنَّ النَّاسَ رَأوْا شيطانًا قطُّ على صورة، ولكنْ لمَّا كان الله تعالى قد جعل في طباعِ الأمم استقباحَ جميعِ صُورِ الشَّياطين، واستسماجَه وكراهتَهُ، وأجرى على ألسنة جميعهم ضرْبَ المثل في ذلك رجع بالإيحاش والتَّنفير، وبالإخافة والتفزيع، إلى ما قد جعله اللهُ في طباع الأوَّلين والآخِرين وعندَ جميعِ الأمم على خلاف طبائع جميع الأمم"[2].

وكذلك المبرد، فقد كان له دورٌ بليغٌ في الدفاع عن آيات الله ﷻ من اعتراضات الجهلة، فجاء معبِّرا عن المحسوس المشاهَد في الآية بالحاضر، والمعقول الموجود في الذهن بالغائب، بقوله: "وقد اعترضَ معترضٌ من الجَهَلَةِ المُلْحِدينَ في هذه الآية: فقال: إنَّما يُمَثَّلُ الغائبُ بالحَاضِرِ، ورُؤُوس الشياطين لمْ نَرَها، فكيف يَقَعُ التمثيل؟! فهؤلاء في هذا القول كما قال الله جلَّ وعزَّ:﴿ **بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ** ﴾[سورة يونس:٣٩]."[3].

فكان ردُّه على طعن أولئك الطاعنين ببيان أهمية هذا التشبيه، وما فيه من تقريب للمعنى قد استقر في النفس استقرارًا تامًا، كما استقر حديث مَن سبقه عنه؛ لأنَّه جاء بما يُمثِّل صورتهم خير تمثيل؛ لقبح منظر الشياطين وبشاعتهم، يقول: "وهذه الآية قد جاء

---

(١) كتاب الحيوان، تحقيق: عبدالسلام محمَّد هارون، ط٢، ج٦(مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٨٦ه-١٩٦٧م) ص٢١١، ٢١٢.

(٢) الجاحظ، الحيوان، ج٤(١٣٨٥ه-١٩٦٦م)، ص٣٩، ٤٠.

(٣) الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دط، مج٢(المملكة العربية السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، دت)، ص٣٩٦.

تفسيرها على ضربين: أحدُهما أنَّ شجرًا يقال له"الأَسْتَنُ" منكَرَ الصورة يقالُ لثمره "رؤوس الشياطين"... والقولُ الآخرُ–وهو الذي يَسْبقُ إلى القلب–أنَّ الله جلَّ ذكرهُ شَنَّعَ صورة الشياطينِ في قلوب العباد، فكان ذلك أبلغ من المعايَنَة، ثُمَّ مَثَّلَ هذه الشجرةَ بما تَنْفِرُ منه كلُّ نفسٍ"[1].

أمَّا ابن سنان فلو نُظِرَ إلى تحليله لهذه الآية بإمعان؛ لظهرت الروعة وحسن البيان؛ لكونه تحليلًا رائعًا، وضَّح المعنى توضيحًا دقيقًا، من خلال ربط الصورة بالأخرى ربطًا بليغًا؛ إذْ عدَّ الطرفين من قبيل التشبيه العقلي الوهمي، وذلك من حيث إنَّ شجرة الزقوم غير مشاهَدة؛ لأنَّها ليست موجودة في الدنيا، فكذلك رؤوس الشياطين غير مشاهدة، مبينًا أنَّ المشبَّه به كان أوضح من المشبَّه؛ لاستقرار صورتهم في نفوس البشرية فأصبحت بمنزلة المشاهَد المدرَك، يقول: "إنَّ الزقوم غير مشاهد ورؤوس الشياطين غير مشاهدة، إلَّا أنَّه قد استقر في نفوس الناس من قبح الشياطين ما صار بمنزلة المشاهد، كما استقر في نفوسهم من حسن الحور العين ما صار بمنزلة المشاهد، حتى إنَّهم إذا شبهوا وجهًا بوجه الحور كان تشبيهًا صحيحًا، وإنْ كانت الحور لمْ تشاهد، ولمْ يستقر في نفوسهم قبح طلع الزقوم كما استقر في نفوسهم قبح رؤوس الشياطين، فكأنَّ المشبه به أوضح، وفي رؤوس الشياطين أيضًا من المبالغة في القبح ما ليس في طلع الزقوم..."[2].

ومع روعة هذا التحليل، وما فيه من صورٍ وهمية دقيقة قربت المعنى بشكلٍ مبهرٍ، إلَّا أنَّه قد يؤخذ عليه جعلُه خصائصَ الجنة، وما فيها كالحور العين، بمنزلة الوهمي غير الموجود، وهذا غير صحيح يقينًا بوعد اللهﷻ الصالحين من عباده بجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وكل هذه الأمور تؤكد أنَّ الجنة وما فيها يكون

(1) المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، ص٣٩٦، ٣٩٧.
(2) سرُّ الفصاحة،ط(بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية،١٩٨٢م-١٤٠٢ه)، ص٢٥٤، ٢٥٥. ويُنظر: محمَّد الأمين الدودو، الشواهد القرآنية في الدراسات البلاغية إلى نهاية القرن الرابع الهجري عرضًا ودراسة، رسالة دكتوراه، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة(١٤٣٠ه)، ص٢٦٠.

من قبيل المحسوس في الوقت المحدد الذي يأذن به الله ﷻ؛ لذا فهي غير وهمية، وبناء على ذلك فإنَّ شجرة الزقوم غير وهمية فهي موجودة في جهنم ومحسوسة لأهلها[١].

وبالنظر في رأي السبكي في هذه الآية، يتضح أنَّه كان له رأيٌ مغايرٌ عمَّا قاله السابقون فيها؛ إذْ عدَّ المشبه به وهي رؤوس الشياطين عبارة عن مركَّب خيالي؛ لأنَّ الرؤوس والشياطين مُدرَكة بالحس؛ لأنَّ الجن يُرَون، أمَّا الممتنع فالمركَّب بالإضافة، وهو تركيب الرؤوس مع الشياطين على أنَّه قيل في الآية: إنَّ رؤوس الشياطين ثمرة قبيحة لشجرٍ منكر الصورة[٢]. ويتضح من خلال حديثه أنَّه عدَّه من قبيل تشبيه المحسوس الحقيقي المشاهد وهي شجرة الزقوم بالمحسوس الخيالي المركَّب الذي لا وجود له في الواقع وهي رؤوس الشياطين، فكلا الطرفين محسوسان[٣].

واستشهد الرُّماني بقوله تعالى:﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً**﴾ في حديثه عن باب التشبيه، وعدَّها من **الوجه الأول:** الذي يقوم على إخراج مالا تَقَع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، وعلَّق على الشَّاهد بقوله: "فهذا بيان قد أَخْرَجَ مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شِدَّةِ الحاجة وعِظَمِ الْفَاقَة، ولو قيل: يحسبه الرائي ماءً، ثُمَّ يظهر أنَّه على خلاف ما قَدَّر لكان بليغًا، وأبلغ منه لفظ القرآن؛ لأنَّ الظمآن أشدُّ حرصًا عليه وتعلُّق قلب به، ثُمَّ بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيِّره إلى عذاب الأبد في النار–نعوذ بالله من هذه الحال– وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النَّظم وعذوبة اللفظ وكثرة الفائدة وصحة الدلالة"[٤]. فالرُّماني لمْ يكتفِ بإبراز كيفية تشبيه المعقول

---

(١) يُنظر: الدودو، الشواهد القرآنية في الدراسات البلاغية إلى نهاية القرن الرابع الهجري عرضًا ودراسة، ص٢٦٠، ٢٦١.

(٢) يُنظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: د.عبدالحميد هنداوي، ط، ج٢ (صيدا-بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٣ه-٢٠٠٣م)، ص٤١.

(٣) ولعلَّ ما قاله الدودو في رسالته وما ذهب إليه يؤيد الرأي ويعضده. يُنظر: الشواهد القرآنية في الدراسات البلاغية إلى نهاية القرن الرابع الهجري عرضًا ودراسة، ص٢٦١.

(٤) النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، ط٤(القاهرة: دار المعارف، دت) ،٨١، ٨٢. والقول فيها عند العسكري لا يختلف عنه عند الرُّماني. يُنظر: الصناعتين، ص٢٤٠. واستشهد بها أبو هلال أيضًا في حديثه عن

بالمحسوس، وجعله مدركًا بالحواس، مرئيًا بالعيان فحسب، وإنَّما علاوة عليه أشار إلى الفرق بين التعبير بقوله:(الظمآن)، و(الرائي) وبيان ما في الأولى من دقة التصوير، وعمق التأثير في النفوس[١].

واستشهد القزويني بقوله تعالى:﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ**﴾ في حديثه عن التشبيه التمثيلي المركَّب، الذي يكون تركيبه عقليًّا، كالمنظر المطمع مع المخبر المؤيس، الذي هو عكس ما قدر؛ لأنَّه شبه ما يعمله الكافرون من أعمال يظنونها مقبولة، وهي لا تنفعهم، ولا تنجيهم من العذاب يوم القيامة، بالسراب الذي يراه الكافر ماءً، فيأتيه فلا يجد ما رجاه فيخيب أمله وظنه[٢].

أمَّا العلوي، فقد استشهد بقوله تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً**﴾ في حديثه عن التشبيه المطرد[٣] وجاء بها للتمثيل على أنواع

المبالغة من حيث إنَّه: "لو قال يحسبه الرائي لكان جيدًا؛ ولكن لمَّا أراد المبالغة ذكر الظمآن؛ لأنَّ حاجته إلى الماء أشد، وهو على الماء أحرص". المرجع السابق، ص٣٦٥.

(١) لأنَّ القرآن لو اختار تعبير لا تصوير فيه ولا دقة فقيل: مثلًا في غير القرآن: "والذين كفروا أعمالهم غير مثمرة" يتضح من خلاله أنَّه: " لمْ يكنْ له في النفس هذا الأثر القوي الذي يُصوِّر عدم جدوى هذه الأعمال؛ إذْ يقرنه بشيء نراه بأعيننا ونكاد نؤمن بوجوده إيمانًا لا يتسرب إليه الشَّك، فالصورة التي أتى بها القرآن تزيدنا اقتناعًا بعدم جدوى أعمالهم". عبدالفتاح لاشين، البيان في ضوء أساليب القرآن، ط٢(القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤١٨ه-١٩٩٨م)، ص٦٠.

(٢) يُنظر: الإيضاح في علوم البلاغة، ص٢٢٧.

(٣) وهو ما يعرف بالتشبيه المعكوس، أو غلبة الفروع على الأصول كما أطلق عليه ابن جني، وقال عنه: "هذا فصل من فصول العربية طريف تجده في معاني العرب كما تجده في معاني الأعراب، ولا تكاد تجد شيئًا من ذلك إلَّا والغرض فيه المبالغة". الخصائص، تحقيق: محمَّد علي النجار، دط، ج١(المكتبة العلمية، دت)، ص٣٠٠، وعرَّف الجرجاني هذا النوع من التشبيه بأنَّه: "جعل الفرع أصلًا والأصل فرعًا". أسرار البلاغة، ص٢٢٣، ٢٢٥. وتعرض ابن الأثير لهذا النوع من التشبيه وأطلق عليه (الطرد والعكس) يقول عنه: "واعلم أنَّ من التشبيه ضربًا يسمى الطرد والعكس، وهو أنْ يُجْعَل المشبَّه به مشبهًا، والمشبَّهُ مشبهًا به وبعضُهم يسمِّيه غلبة الفروع على الأصول". المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، ط٢، ج٢(الفجالة- القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، دت)،ص١٥٦.

التشبيه، وعدَّها من تشبيه المعنى بالصورة، وعلَّق عليها ممثلًا لها بأمرٍ سريع الزوال كالتراب في الصحراء في تلاشيه وزواله، وكأنه شيءٌ لمْ يكن[١].

والمعنى في قوله تعالى:﴿**وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩**﴾ أي: "والقمر قدرنا مسيره في منازل، يسير فيها لمعرفة الشهور، وهي ثمانية وعشرون منزلًا، في ثمانٍ وعشرين ليلة، ينزل كل ليلةٍ في واحدٍ منها لا يتخطاها ولا يتعداها، فإذا كان في آخر منازله دقَّ واستقوس ﴿ **حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩**﴾ أي: حتى صار كغصن النخل اليابس، وهو عنقود التمر حين يجف ويصفر ويتقوس"[٢].

والشاهد في الآية قوله تعالى:﴿ **حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩**﴾ أي: القمر في تقوسه وانحنائه وضموره ونحافته عاد كالعرجون القديم اليابس، والتشبيه هنا من قبيل تشبيه المحسوس بالمحسوس؛ لكون طرفاه مدركيْن بحاسة البصر؛ لأنَّ القمر في نهاية رحلته، وآخر منازله يبدأ بالتقوس والاصفرار والدقة؛ حتى يعود كالعرجون القديم اليابس[٣]. ومن خلال هذا التحليل يتبادر إلى الذهن حديث الرَّازيّ عنه، وتحديد المشبَّه والمشبَّه به بكونهما محسوسين، القمر من ناحية تدرجه وتعداد مراحله؛ إذْ إنَّه يبدأ كبيرًا ثُمَّ يتضاءل حجمه ويتقوس، والعرجون القديم من ناحية دقته وتقوسه واصفراره بعد أنْ كان مثمرًا نافعًا، وذا خير وفير.

وعليه فتشبيه القمر في آخر منازله ونهاية رحلته بالعرجون القديم تشبيهًا غنيًا جدًّا وبديعًا متقنًا، صوَّر المشهد في صورة مشاهدة واقعة، وذلك: "لأنَّ العرجون القديم لا يشارك القمر في الشكل فحسب، وإنَّما هناك معانٍ أخرى، منها أنَّ العرجون القديم كأنَّه شيء تائه لا يُلتفت إليه، وكذلك القمر في هذه المرحلة تراه ضالًا في السماء، لا تتعلق به الأبصار، ومنها أنَّ كلًّا منهما كان موضع العناية ومتعلق الأنظار، فالعرجون كان حامل الثمر والنفع،

(١) يُنظر: الطِّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق: د.عبدالحميد هنداوي، ط، ج١(صيدا-بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م)، ص١٥٧.

(٢) محمَّد الصَّابوني، صفوة التفاسير، ط٤، مج٣(بيروت: دار القرآن الكريم، ١٤٠٢ه-١٩٨١م)، ص١٥.

(٣) عبدالقادر حسين، القرآن والصورة البيانية، ط٢(بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥ه-١٩٨٥م)، ص٤٦.

والقمر كان مرسل النور والهداية، وقوله:﴿**حَتَّىٰ عَادَ**﴾ يطوي قصة رحلة طويلة، بدأها هلالًا ثُمَّ مضى في مسيرة طويلة حتى عاد..."[١].

ويدور الحديث في قوله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً** ﴾ حول بيان أحوال الكفار وحقيقة أعمالهم التي يظنونها صالحة مقبولة عند اللهﷻ وهي كالسراب، وذلك من خلال ما ضربه اللهﷻ من الأمثال التي تقرب المعنى للأذهان، وتبيّن عِظم فساد أعمالهم، وعدم انتفاعهم بها مهما كانت؛ لأنَّها ليست خالصة لوجه الله، يقولﷻ: "والذين جَحَدوا توحيد ربِّهم، وكذَّبوا بهذا القرآنِ وبمَن جاء به، مَثَلُ أعمالِهم التي عمِلوها ﴿**كَسَرَابِۭ**﴾"[٢].

و التشبيه في الآية تمثيلي؛ لأنَّه جعل من السراب كأنَّه ماء يجري في أرض قاحلة، لا يُوجد بها شيءٌ ممَّا يتخيلون، فشبَّه أعمال الكفار التي يحسبونها ذات منفعة وصلاح وفائدة عظيمة في الآخرة بسراب يراه الكفار الذين غلبهم العطش ماءً، فيُهرعون إليه مسرعين مستبشرين بما رأوه، فإذا وصلوا إليه لا يجدونه شيئًا، فتخيب آمالهم وظنونهم، ويجدون أمامهم زبانية ربهم فيعتلونهم ذاهبين بهم إلى النار والعذاب الأليم[٣].

فقد بيَّن التشبيه فساد أعمالهم وبطلانها وعدم انتفاعهم بها وقت الحاجة إليها في يوم القيامة؛ لأنَّها ليست خالصة لوجه اللهﷻ؛ لذا ذهبت هباءً منثورًا كأنَّها لمْ تكن، مهما عظمت وبلغت مبلغها من الفوائد العظيمة، والمنفعة الجليلة، فما كان جزاؤهم إلَّا العذاب الأليم المقيم في الدنيا والآخرة، فحالهم كحال الظمآن الذي اشتد عليه العطش وعظمت حاجته إلى الماء ليروي به عطشه، فإذا رأى السراب تخيله ماءً، فاستبشر خيرًا، وفرِح به، وتهلَّل وجهه، ظنًا منه أنَّه ماء في الحقيقة، فيهرع إليه مسرعًا، فإذا به لا يجد ممَّا ظنه حقيقة شيئًا، فيتحسر

---

(١) أبو موسى، التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص٤١.

(٢) محمَّد الطَّبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: د.عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ط، ج١٧، (القاهرة: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ١٤٢٢ه-٢٠٠١م)، ص٣٢٦.

(٣) ينظر: محمود الزَّمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط٣(بيروت-لبنان: دار المعرفة، ١٤٣٠ه-٢٠٠٩م)، ص٧٣٢، السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ج٢، ص٦٢.

على نفسه، ويخيب أمله، وينقطع ما تعلَّق قلبه به من سبل النجاة والحياة، ولا يجد أمامه إلَّا مصيره المحتوم وعذابه الأليم المقدَّر الذي وعد اللهﷻ به العصاة الطغاة من أهل الكفر والضلال.

وبالنظر في هذه الصورة يتضح أمام القارئ أنَّها اهتمت بتصوير اللهفة والسعي إلى التزود من الأعمال الصالحة للانتفاع بها في وقت الحاجة إليها، ثُمَّ الخيبة وفقد الأمل وأنَّ ما عمله، وتأمل نفعه ما كان إلَّا وهمًا وخيالًا[١]. فيتضح من خلال هذا التشبيه كيفية الانتقال بالمعنى انتقالًا مُبهرًا من الأمور العقلية الذهنية إلى الأمور الحسية المدركة بالحواس، كما أشار إليها الرَّازيّ في حديثه عنها، وتقسيمه لها؛ ليصبح بها المعنى قويًا بارزًا قريبًا من المشاهد، فالمعنى الذهني أصبح متمثلًا: "في صورة حية يتحرك وترقبه العين، الفكرة صارت حدثًا، وشخصًا، وصحراءً، وحرًا، وظمأً، وكدًا، ومعاناة، ومفاجأة"[٢].

أمَّا عن قوله تعالى:﴿**طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ** ٦٥﴾ فالحديث فيها يدور حول شجرة الزقوم، وما فيها من أوصاف تدلُّ على قبحها، وتقرّب المعنى بشكل دقيق؛ حتى يستقر في النفس استقرارًا تامًا، والمعنى فيها أي: "كأنَّ طَلْعَ هذه الشجرة–يعني شجرةَ الزقومِ– في قُبْحِه وسَماجتِه رءوس الشياطين في قُبْحِها"[٣].

وفي اختيار هذا النوع من التشبيه دلالة بليغة على: " تناهيه في الكراهة وقبح المنظر؛ لأنَّ الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس؛ لاعتقادهم أنَّه شر محض لا يخلطه خير، فيقولون في القبيح الصورة كأنَّه وجه شيطان، كأنَّه رأس شيطان، وإذا صوَّره المصورون جاؤوا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله، كما أنَّهم اعتقدوا في الملك أنَّه خير محض لا شر فيه فشبَّهوا به الصورة الحسنة"[٤].

---

(١) يُنظر: محمَّد أبو موسى، الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، ط٢(القاهرة: مكتبة وهبة ،١٤١٨ه-١٩٩٧م)، ص١٠٥.
(٢) أبو موسى، الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، ص١٠٢.
(٣) الطَّبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج١٩، ص٥٥٣.
(٤) الزَّمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ص٩٠٧.

ويعدُّ هذا التشبيه من قبيل تشبيه الموجود المحسوس، بالمعقول المتخيَّل الذي لا وجود له في الأعيان، كما أشار الرَّازيّ إلى ذلك وبيَّنه، فهو وإنْ كان لا يجيز تشبيه المحسوس بالمعقول إلَّا أنَّه لا ينكره من جميع النواحي، وإنَّما ينظر إليه من ناحية أخرى، فإذا كان المشبه به متخيَّلًا قَبِله؛ لأنَّه غريب متخيَّلٌ، لا وجود له في الحقيقة وأمام الأعيان، وبناء عليه تتضح بلاغته وحسنه من خلال النظر إلى ما فيه من معانٍ قَيِّمة بليغة، جيء بها بطريقة مبهرة شيقة، فشجرة الزقوم وإنْ كانت غير موجودة في الدنيا إلَّا أنَّها موجودة مدركة في الآخرة، كما وعد اللهﷻ بها أهل النار؛ لذا فإنَّ أوصافها من شدة قبحها وبشاعتها تشبه رؤوس الشياطين، وذلك ممَّا يزيدها بشاعة وشناعة وتشويهًا للصورة أكثر ممَّا هي عليه، والذي سمح للمشبه به أنْ يكون خياليًّا غير موجود في الواقع هو: "ما تراكم على الخيال بمرور الزمن من أوهام رسمت في النفس صورة رءوس الشياطين في هيئة بشعة مرعبة، وأخذت هذه الصورة يشتد رسوخها بمرور الزمن، ويقوى فعلها في النفس، حتى كأنَّها محسوسة تُرى بالعين وتُلمس باليد، فلمَّا كانت هذه الصورة من القوة إلى هذا الحد ساغ وضعها في موضع التصوير والإيضاح، ولا نستطيع أنْ ننكر ما لهذه الصورة من تأثير بالغ في النفس"(١).

فمن خلال تحليلات البلاغيين وآرائهم وما يعقبها من أقوال المفسرين واستشهاداتهم، يبرز دور الرَّازيّ في هذا الجانب، الذي ظهرت فيه شخصيته المستقلة وآراؤه العقلية الفذة، التي لا ترفض الشيء قسرًا وإجبارًا وإتباعًا، وإنَّما لبعده عن الفائدة المرجوة والأثر البليغ، ولو كان فيه فائدةٌ تذكر، وتمثيلٌ غنيٌ مثمرٌ، يُبرِز المعنى، فهو لا يُصِرُّ على رفضه، وإنَّما يقبله ويبدي رأيه فيه من جهة ما يراه صحيحًا وبليغًا، وليس هذا فحسب، كما أنَّه لو نظر فيما أورده العالمان الجليلان في هذا المطلب -أعني الجرجاني والرَّازيّ- وبيان الفرق بينهما؛ لتبيَّنت استقلالية الاستشهاد بالآيات على القواعد ذاتها؛ لأنَّ الرَّازي اختلف عن شيخه في هذا المطلب، وأسهب فيه مستشهدًا عليه بأدلة من الذكر الحكيم، تحدَّث فيها عن المشبَّه والمشبَّه

(١) أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، دط(مصر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع،٢٠٠٤)، ص١٥٠.

به، وبيان أقسامهما، إلَّا أنَّ إسهابه لمْ يكنْ في غير محله، وإنَّما كان ذا قيمة ومعنى؛ حيث ألمَّ بالأقسام من جميع الجهات مع إيراد الشواهد التي توضح ماهية كل قسم، وما يحتوي عليه بطريقة منظمة وموضحة، وهذا على خلاف الجرجاني الذي لمْ يستشهد بالآيات التي ذكرها الرَّازيّ في حديثه عن هذه الأقسام، ولعلَّ هذا الفارق بينهما–والله أعلم وأحكم– يرجع إلى اهتمام الرَّازيّ بالجانب القرآني، وجعْله إياه نصب عينه، ومحل اهتمامه في كل موضع يمكن الاستدلال عليه لإيضاح قاعدة، كما ينبئ عن مدى دقته؛ إذْ لمْ يمر على هذه الأقسام مرور الكرام، وإنَّما أعطاها حقها في الاستشهاد والإيضاح.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمَّدﷺ وعلى آله وصحبه وسلم، فقدْ جاءت هذه الدراسة في مقدمة وضحتُ فيها مادة البحث، ثُمَّ تمهيد

تناولتُ فيه التعريف بالرَّازيّ وكتابه القَيِّم، ومن ثَمَّ انتظمت الدراسة في مبحث يعقبه مطلب، ويتدرج منه أربعة أقسام تناولت فيها نماذج مختارة من الشَّواهد القرآنية الواردة في التشبيه، مبينة آراء البلاغيين فيها، وحللتها تحليلًا بلاغيًّا يُظهِر قيمتها.

وبعد هذه الرحلة في فن التشبيه توصل البحث إلى مجموعة من النتائج، من أهمها:

-ظهرت شخصية الرَّازيّ المستقلة من خلال دراسته لفن التشبيه، وحديثه عن المشبَّه والمشبَّه به وما يتعلَّق بهما، وذلك من خلال إيراده لشواهد قرآنية لَمْ يوردها الجرجاني من قبل ولَمْ يتطرق إليها.

-ظهر من توظيف الرَّازيّ للشَّاهد القرآني في هذا المطلب من خلال ما تم إيراده أنَّه يذكر الشَّاهد كمثال يدعم به رأيه، ويثبت به القاعدة أكثر من تحليله، وبيان موضع البلاغة فيه.

-تمتع الرَّازيّ بأسلوب سهل يسير في عرض أفكاره؛ إذْ يتدرج في عرضها، وتقريبها للقارئ؛ حتى يصل من خلالها إلى غايته ومراده، فيبيّن لِمَ قَبِلَ هذا النوع، ورفض غيره.

- برز اهتمام الرَّازيّ بالشَّاهد القرآني بشكل واضح؛ إذْ جعله نصب عينه، وعلى رأس الشَّواهد الأخرى، إلَّا أنَّه يؤخذ عليه عدمُ تعلّيقه على الشَّاهد القرآني وتحليله، واكتفاؤه بما قيل في الشَّاهد الشعري أو النثري.

-أفاض الرَّازيّ القول، واستفاض في حديثه عن القسم الرابع، وهو تشبيه المحسوس بالمعقول، فهو يرفضه، ولا يقبله؛ لخلوه من الفائدة، وذلك على خلاف الأقسام الأخرى، ولكن عندما وَجَد فيه فائدةً تذكرُ، وتمثيلًا غنيًّا، يوضح المعنى كتشبيه الموجود بالمتخيَّل، فإنَّه يقبله، ويبدي رأيه فيه من جهة ما يراه صحيحًا وبليغًا.

ومن التوصيات المقترحة:

-الاهتمام بفن التشبيه عند الإمام الرَّازيّ من خلال دراسة الشَّواهد الشعرية الموجودة فيه مع بيان دوره، وما تميز به عن غيره.

– الاهتمام بدراسة التشبيه القرآني، من خلال كتب البلاغيين، وسبر أغواره وبيان أثره في تطور الدرس البلاغي من جوانب أخرى.

وأخيرًا أرجو اللهَ ﷻ أنْ أكون قد وُفِّقتُ فيما إليه قصدت، وهداني ربي إلى الصواب فيما كتبت.

وإني لأحمد اللهﷻ الذي وفقني لإتمام هذا العمل، كما أسأله ﷻأنْ يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأنْ يعفو عمَّا فيه من الزَّلل والتقصير، وأنْ يكتب له القبول والتيسير، وينفع به، إنَّه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير، وآخر دعوانا أنْ الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المصادر والمراجع:

١–القرآن الكريم.

٢-ابن الأثير، نصر الله بن أبو الكرم محمَّد محمَّد. (د.ت). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة. ط٢. الفجالة-القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

٣-ابن أبي اصيبعه، أبو العباس أحمد بن القاسم. (د.ت). عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تحقيق:د. نزار رضا. دط. بيروت: دار مكتبة الحياة.

٤-امرؤ القيس، جندح بن حجر. (١٩٨٤م). ديوان امرئ القيس. تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم. ط٤. دار المعارف.

٥- بدوي، أحمد أحمد. (٢٠٠٤م). من بلاغة القرآن. دط. مصر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

٦-التهانوي، محمَّد علي. (١٩٩٦م). كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم. مراجعة: رفيق العجم. تحقيق: د. علي دحروج. ط. بيروت-لبنان: مكتبة لبنان ناشرون.

٧- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر.

(١٣٨٥هـ-١٩٦٦م، ١٣٨٦هـ-١٩٦٧م). كتاب الحيوان. تحقيق: عبدالسلام محمَّد هارون. ط٢. مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.

(١٤١٨هـ-١٩٩٨م).البيان والتبيين. تحقيق: عبدالسلام محمَّد هارون. ط٧. القاهرة: مكتبة الخانجي.

٨-الجرجاني، عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمَّد.

(١٤١٢هـ-١٩٩١م). أسرار البلاغة. تحقيق: محمود محمَّد شاكر. ط. جدة: دار المدني.

(١٤١٣هـ-١٩٩٢م). دلائل الإعجاز. تحقيق: محمود محمَّد شاكر. ط٣. القاهرة: مطبعة المدني.

٩-ابن جني، أبو الفتح عثمان. (د.ت). الخصائص. تحقيق: محمَّد علي النجار. دط. المكتبة العلمية.

١٠- الجوهري، إسماعيل بن حماد. (١٩٩٠م). الصِّحاح تاج اللغة وصِحاح العربيَّة. تحقيق: أحمد عبدالغفور عطّار. ط٤.بيروت-لبنان: دار العلم للملايين.

١١- حسين، عبدالقادر. (١٤٠٥هـ-١٩٨٥م). القرآن والصورة البيانية. ط٢. بيروت: عالم الكتب.
١٢-ابن خلكان، أحمد بن محمَّد. (١٣٩٨هـ-١٩٧٨م). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق: د. إحسان عباس. دط. بيروت: دار صادر.
١٣-الدودو، محمَّد الأمين. (١٤٣٠هـ). الشواهد القرآنية في الدراسات البلاغية إلى نهاية القرن الرابع الهجري عرضًا ودراسة. دط.(رسالة دكتوراه الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية).
١٤-الرَّازيّ، الإمام فخر الدين. (١٩٨٥م). نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز. تحقيق: د.بكري شيخ أمين. ط. بيروت-لبنان: دار العلم للملايين.
١٥-ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني. (١٤٠١هـ-١٩٨١م). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق: محمَّد محي الدين عبدالحميد. ط٥. بيروت-لبنان: دار الجيل.
١٦- الرُّماني، أبو الحسن علي بن عيسى. (د.ت). النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. تحقيق: محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام. ط٤. القاهرة: دار المعارف.
١٧- الزَّمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. (١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م). الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. ط٣. بيروت-لبنان: دار المعرفة.
١٨-السبكي، الشيخ بهاء الدين. (١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م). عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح. تحقيق: د.عبدالحميد هنداوي. ط.صيدا-بيروت: المكتبة العصرية.
١٩- ابن سنان، أبو محمَّد عبدالله بن محمَّد. (١٩٨٢م-١٤٠٢هـ). سِرُّ الفصاحة. ط. بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية.
٢٠- الصَّابوني، محمَّد علي. (١٤٠٢هـ-١٩٨١م). صفوة التفاسير.ط٤.بيروت: دار القرآن الكريم.
٢١- الطَّبري، أبو جعفر محمَّد بن جرير. (١٤٢٢هـ-٢٠٠١م). جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق: د.عبدالله بن عبدالمحسن التركي. ط. القاهرة: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.

٢٢-العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله. (١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م). الصناعتين. تحقيق: علي محمَّد البجاوي، محمَّد أبو الفضل إبراهيم. دط. صيدا-بيروت: المكتبة العصرية.

٢٣- العلوي، يحيى بن حمزة. (١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م). الطِّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. تحقيق: د.عبدالحميد هنداوي. ط. صيدا-بيروت: المكتبة العصرية.

٢٤-القزويني، أبو عبدالله محمَّد بن عبدالرحمن. (٢٠٠٩م-١٤٣٠هـ). الإيضاح في علوم البلاغة. تحقيق: محمَّد عبدالقادر الفاضلي. دط. صيدا-بيروت: المكتبة العصرية.

٢٥-لاشين، عبدالفتاح. (١٤١٨هـ-١٩٩٨م). البيان في ضوء أساليب القرآن.ط٢. القاهرة: دار الفكر العربي.

٢٦-المبرد، أبو العباس محمَّد بن يزيد. (د.ت). الكامل في اللغة والأدب. تحقيق: د. عبدالحميد هنداوي. دط. المملكة العربية السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.

٢٧- ابن منظور، محمَّد بن مكرم. (د. ت). لسان العرب. دط. بيروت: دار صادر.

٢٨- أبو موسى، محمَّد محمَّد.

(١٤١٨هـ-١٩٩٧م). الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم. ط٢. القاهرة: مكتبة وهبة.

(٢٠٠٦م). التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان. ط٦. القاهرة: مكتبة وهبة.

٢٩-النايلة، عبدالجبار.(١٩٧٦م). الشَّواهد والاستشهاد في النحو. دط. بغداد: مطبعة الزهراء.